الخيال والإبداع وصناعة طفل المستقبل

أ. شاهيناز العقباوى
كاتبة أطفال

بين الخيال والإبداع علاقةٌ قوية ووثيقة لا يمكن إغفالها؛ فالخيال هو المرحلة الأولى والأساسية للانطلاق إلى الإبداع اللامحدود، فالخيال هو أحد آليات الإبداع المهمة والضرورية لتغيير الواقع وتخطى حدود المعقول والمحسوس والمرئى، بالانتقال إلى الربط بين الوقائع والأحداث والإمكانيات المتاحة للانطلاق والإبداع والبحث عن الأفضل والأكمل والأصلح.

ومع مرور الزمن وتطور التاريخ والتقدم التكنولوجي الذي ميّز مختلف العصور، تأكد بشكلٍ لا يقبل النقاش أو الشك أن الخيال إذا ما دعمته التجارب والأبحاث العلمية والقوانين البشرية والدعم المادى لا يتوقف عن منح أو عطاء المزيد والمزيد من الأفكار الجديدة والرؤى الإبداعية الخلاقة. كما أن الإبداع والذى عُرِف بأنه مزيجٌ من الخيال العلمى المرن المختلف، الذى وجِد بهدف تطوير فكرة قديمة، أو لإيجاد فكرة جديدة مختلفة مهما كانت الفكرة صغيرة، ينتج عنها إنتاجٌ متميز غير مألوفٍ، يمكن تطبيقه واستعماله، وعادة ما يتميز الطفل المبدع بحب الاستطلاع والرغبة فى فحص الأشياء وربطها معًا وطرح الأسئلة باستمرار، واستعمال كل حواسه فى استكشاف العالم المحيط به.

ويتميز الطفل بخيالٍ لا محدود، فموهبته الفطرية وقدرته على التخيل غير المقيَد والربط بين الأحداث والأماكن والأشخاص، ذلك الربط الذى يتميز بالتطور والنمو والتميز والخروج عن حدود المألوف ـ تختلف وتتطور باختلاف مراحل عمره المتنوعة والصاعدة، فكل مرحلةٍ عمرية يمر بها الطفل تدعم المرحلة التالية بما لديه من مكتسباتٍ وخبراتٍ وثقافاتٍ، والذى بدوره يساهم فى تزكية الخيال الإبداعى لديه إذا ما كان هناك حرص على تنميته وتطويره وتوفير المناخ الملائم له؛ لأن الخيال بصفةٍ عامة ليس بالشىء المنفصل عن الواقع الذى لا يتصل بمجالات الحياة المختلفة والمتنوعة التى نعيش فيها ويوجد بها الطفل، فالخيال والفكر الإبداعى لدى الطفل ما هو إلا حصيلة التجارب والخبرات التى اكتسبها عبر مراحل عمره المختلفة نتيجة التفاعل المستمر بينه وبين البيئة المحيطة به. ولذلك فإن الحديث عن الخيال وعلاقته الوثيقة بالابتكار والإبداع يعتبردرجة أولى لفهم المزيد عن هذه العلاقة، والوصول إلى قناعةٍ مؤكدة تنطوى على أهمية استثمار الخيال وضرورته لدى الطفل؛ لما له من تأثيرٍ واضحٍ وقوى فى تنمية التفكير الابتكارى والإبداعى لديه.

خاصة.. وكما هو معروف علميًا أن خيال الطفل فى المراحل الأولى من حياته ينطلق دون قيدٍ أو حد؛ ليحقق ذاته ويثبت وجوده ويدعم ثقته فى نفسه وفى إمكانياته وقدراته ويلبى حاجته بأسلوبٍ إبداعى غير مألوف، يجذب انتباه المحيطين به، ويحتاج منهم فى المقابل الدعم والتركيز والثقة والتوجيه، سواء أكان المحيطون به هم الأسرة كمجتمعٍ صغيرٍ أم الدولة، وهى المجتمع الأكبر، أم البيئة العامة التى تحيط به وتؤثر فيه ويتأثر بها.

هذا ويؤكد "ليف فيغوتسكى" الباحث الروسى فى مجال الطفل فى كتابه "الخيال والإبداع عند الأطفال"، أن الخيال والإبداع كلاهما دائمًا ما يعملان معًا فى كل مراحل الطفل العمرية، والتفكير الإبداعى المعتمد على التخيل لا يقتصر على المتميزين منهم، بل يوجد أيضًا عند الأطفال العاديين، لكن يحتاج إلى دعم من قِبل البيئة والأسرة المحيطة به سواء أكان طفلاً مميزًا أم عاديًا.

بينما يرى علماء النفس والتربية أن الإبداع يظهر لدى الأطفال الذين تتوافر لديهم الرغبة وحب الاستطلاع، لاسيما فى مراحل عمرهم المبكرة، ولتنمية الخيال الإبداعى لديهم فى هذه السن أهمية بالغة، والذى بدوره يتم سواء فى المنزل أو المدرسة بوسائل متنوعة ومختلفة، يأتى على رأسها قراءة القصص الخيالية والعلمية وحتى الثقافية لهم بشرط أن تنطوى على أهداف أخلاقية إيجابية تدعم الفكر الابداعى لديهم،هذا إلى جانب كونها سهلة وواضحة المعنى بالنسبة للأطفال وتثير اهتماماتهم وتخاطب مشاعرهم بشكلٍ يتميز بالبساطة والسهولة فى توصيل الفكرة والمعلومة على حد سواء.

لذا تعتبر السنوات الأولى فى حياة الطفل هى الأكثر أهمية؛ لأنه من خلالها يبدأ الطفل فى تكوين شخصيته واكتساب الكثير من المهارت التى تساعده على استيعاب البيئة المحيطة به والتفاعل معها بشكلٍ إبداعى متميزٍ ومختلف، وتلعب كلٌّ من الأسرة التى ينشأ فيها الطفل والمدرسة التى يتعلم بها وحتى البيئة المحيطة به دورًا كبيرًا فى تذكية فكره الإبداعى وتنميته وتوجيهه التوجيه الأمثل والأصلح والأفضل سواء له أو لمجتمعه الذى يعيش وينتمى إليه.

وتساهم كلٌّ من الأسرة والبيئة المحيطة بالطفل، من خلال ما تقدمه له من وسائل الدعم فى مساعدته فى مراحل عمره الأولى على السماح بقدراته الإبداعية الخلاقة والابتكارية على الخروج إلى الواقع الفعلى والانتقال من مرحلة الاستفسار وحب الاستطلاع، إلى مرحلة التعبير الفكرى الواقعى المتميز والمختلف، لذا من الضروى أن تفطن الأسرة لأهمية هذه المرحلة وتساعد الطفل المبدع وتوجهه التوجيه الأمثل، ومن ثم استثماره بشكلٍ يعلى منه وينميه، وذلك من خلال حجم التشجيع الذى يتلقاه الطفل داخل الأسرة والبيئة المحيطة به، مع شعوره بالتقدير والاهتمام من قِبل عائلته لكل الأفكار الخيالية والابتكارية والإبداعية التى يطرحها أو يتحدث عنها، ذلك لأنة كلما زاد حجم التشجيع الذى يتلقاه الطفل وشعوره المستمر بالاطمئنان باستيعاب المحيطين له لكل افكاره، ساعده ذلك على عدم الإحجام أو التردد فى التعبير عن كل ما يدور بداخله من أفكارٍ واستفساراتٍ وحتى فى تقديم تفسيراتٍ قد تكون مختلفة وغير مألوفة للكثير من المواقف والأحداث التى يتعرض لها.

وللأسرة أيضًا دور محورى فى بناء مستقبل الطفل المبدع؛ لأنها ستكون حلقة الوصل المهمة والضرورية التى ستربط بينه وبين العالم الخارجي مستقبلاً، فكلما كانت الأسرة أكثر إيمانًا بقدرات الطفل المتميزة والمختلفة، كان ذلك حافزًا وداعمًا له لينمى إبداعه مع إكسابه الشجاعة الكافية التى ستمكنه من مواجهة العالم، وتساعده على بناء شخصيته القوية القادرة على الإبداع فى الحياة بأشكالٍ مختلفة ومتنوعة تناسب إمكانياته وتتفق مع قدراته ورغباته بصورة تتميز بالقوة والشجاعة والمرونة فى الوقت نفسه.

وعلى المدرسة أن تساعد الأسرة فى دَعْم الطفل ومساعدته فى التدرج صعودًا فى مراحل فكره الإبداعى للوصول الى أعلى المراحل الفكرية الابتكارية فى التفكير، ويجب أن تكون هى همزة الوصل بينه وبين المجتمع الذى يقدم له كافة الاحتياجات التى تساعده فى ترجمة فكره الإبداعى الخيالى إلى واقعٍ ملموسٍ يخدم به مجتمعه والعالم أجمع.

وبشكلٍ عام، فإن الطفل يمتلك الكثير من القدرات الإبداعية الخلَّاقة واللا محدودة التى تنمو وتتطور فى كل مرحلةٍ عمرية من مراحل حياته، لكنها تحتاج إلى الدعم والتكاتف من الأسرة والمجتمع والبيئة بشكلٍ عام؛ حتى يتمكن طفل اليوم ويستطيع القبض والسيطرة وتحديد كل توجهاته والاستفادة من قدراته، وهو الأمر الذى سيعود عليه وعلى الأسرة والمجتمع بالنفع؛ لأن الخيال والإبداع ما هى إلا وسائل وهبها الله ومنحها للطفل ليحاول منها

الانطلاق من العالم المحدود إلى عالمٍ آخر أكثر اتساعًا واستيعابًا لكل فكرٍ مختلفٍ متميزٍ، خاصة أن جميع الأفكار التنموية الخلَّاقة كانت فى واقع الأمر فكرة مختلفة ومتفردة ومتميزة احتضنتها البيئة وصدقتها وساهمت فى تحويلها إلى واقعٍ يخدم البشرية عامة، فتنمية خيال طفل الحاضر هو مرحلة أولى لتكوين شخصية إنسان المستقبل المبدع فى العالم القريب.